

## التحرير والتنوير

وَثُمَّ قَوْلٌ آخَرُ لَا يَنْبَغِي الالْتِفَاتُ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا نَذْكُرُهُ اسْتِيعَابًا لِآرَاءِ النَّاظِرِينَ فِي هَذِهِ الْمُسَأَّلَةِ وَهُوَ صَحَّةٌ إِطْلَاقُ الْمُشْتَرِكِ عَلَى مَعَانِيهِ فِي النَّفِيِّ وَعَدْمُ صَحَّةِ ذَلِكَ فِي الإِيجَابِ وَنَسْبُ هَذَا القَوْلِ إِلَى بَرْهَانٍ عَلَى الْمَرْغِيْنَا نِي الْفَقِيْهِ الْحَنْفِيِّ صَاحِبِ كِتَابِ الْهَدَايَةِ فِي الْفَقْهِ وَمَثَارِهِ فِي مَا أَحْسَبَ اشْتِبَاهَ دَلَالَةِ الْلَّفْظِ الْمُشْتَرِكِ عَلَى مَعَانِيهِ بَدَلَالَةِ النَّكْرَةِ الْكُلْلِيَّةِ عَلَى أَفْرَادِهَا حِيثُ تَفِيدُ الْعُمُومُ إِذَا وَقَعَتْ فِي سِيَاقِ النَّفِيِّ وَلَا تَفِيدُهُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ .

وَالَّذِي يَحْبُّ اعْتِمَادَهُ أَنْ يَحْمِلَ الْمُشْتَرِكَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَا يَحْتَمِلُهُ مِنْ الْمَعَانِي سَوَاءً فِي ذَلِكَ الْلَّفْظِ الْمُفَرِّدِ الْمُشْتَرِكِ وَالْمُكَرَّبِ الْمُشْتَرِكِ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الْاِسْتِعْمَالَاتِ سَوَاءً كَانَتْ الْمَعَانِي حَقِيقِيَّةً أَوْ مَجَازِيَّةً مَحْضَةً أَوْ مُخْتَلِفَةً . مَثَالٌ إِسْتِعْمَالُ الْلَّفْظِ الْمُفَرِّدِ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ إِنْسَانًا يَسْجُدُ لِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالقَمَرِ وَالنَّجُومِ وَالْجَبَالِ وَالشَّجَرِ وَالدَّوَابِ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ) فَالسَّجْدَةُ لِهِ مَعْنَى حَقِيقِيٍّ وَهُوَ وَضْعُ الْجِبَاهَ عَلَى الْأَرْضِ وَمَعْنَى مَجَازِيٍّ وَهُوَ التَّعْظِيمُ وَقَدْ إِسْتَعْمَلَ فَعْلُ يَسْجُدُ هُنَّا فِي مَعْنَيِّهِ الْمُذَكُورِيْنَ لَا مَحَالَةً . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ( وَبِسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسُنَتِهِمْ بِالسَّوْءِ ) فَبِسْطُ الْأَيْدِيِّ حَقِيقَةٌ فِي مَدَهَا لِلضربِ وَالسلُبِ وَبِسْطُ الْأَلْسُنَةِ مَحَازٌ فِي عَدْمِ إِمْسَاكِهَا عَنِ الْقَوْلِ الْبَذِيءِ وَقَدْ إِسْتَعْمَلَ هُنَّا فِي كَلَّا مَعْنَيِّهِ . وَمَثَالٌ إِسْتِعْمَالُ الْمَرْكُبِ الْمُشْتَرِكِ فِي مَعْنَيِّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى ( وَيَلِ لِلْمَطَفَّفِينَ ) فَمَرْكُبٌ " وَيَلِ لَهُ " يَسْتَعْمَلُ خَبْرًا وَيَسْتَعْمَلُ دُعَاءً وَقَدْ حَمَلَهُ الْمُفَسِّرُونَ هُنَّا عَلَى كَلَّا الْمَعْنَيِّيْنَ .

وَعَلَى هَذَا الْقَانُونَ يَكُونُ طَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَعَانِي الَّتِي يَذَكُرُهَا الْمُفَسِّرُونَ أَوْ تَرْجِيحُ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ وَقَدْ كَانَ الْمُفَسِّرُونَ غَافِلِيْنَ عَنْ تَأْصِيلِ هَذَا الْأَصْلِ فَلَذِلِكَ كَانَ الَّذِي يَرْجُحُ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي يَحْتَمِلُهَا لَفْظُ آيَةِ مِنَ الْقُرْآنِ يَجْعَلُ غَيْرَ ذَلِكَ الْمَعْنَى مَلْغِيًّا . وَنَحْنُ لَا نَتَابِعُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بَلْ نَرَى الْمَعَانِي الْمُتَعَدِّدةِ الَّتِي يَحْتَمِلُهَا الْلَّفْظُ بَدْوَنِ خَرُوجٍ عَنْ مَهِيَّةِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْبَلِいْغِيِّ مَعَانِي فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ . فَنَحْنُ فِي تَفْسِيرِنَا هَذَا إِذَا ذَكَرْنَا مَعْنَيِّيْنِ فَصَاعِدًا فَذَلِكَ عَلَى هَذَا الْقَانُونَ . وَإِذَا تَرَكْنَا مَعْنَى مَا حَمَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِيْنَ عَلَيْهِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ فَلَيْسَ تَرَكْنَا إِيَّاهُ دَالًا عَلَى إِبْطَالِهِ وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ لِتَرْجُحِ غَيْرِهِ وَقَدْ يَكُونُ اكْتِفَاءً بِذَكْرِهِ فِي تَفَاسِيرِ أُخْرَى تَجْنِبًا لِلإِطَالَةِ إِنَّ التَّفَاسِيرِ الْيَوْمَ مُوْجَدَةٌ بَيْنَ يَدِيْ أَهْلِ الْعِلْمِ لَا يَعْوِزُهُمْ اسْتِقْرَأُوهَا وَلَا تَمْيِيزُ مَحَالِهَا مَتَى جَرَوا عَلَى هَذَا الْقَانُونَ .

المقدمة العاشرة .

في إعجاز القرآن .

لَمْ أَرْ غَرْضًا تَنَاضَلْتْ لَهُ سَهَامُ الْأَفْهَامِ . وَلَا غَايَةٌ تَسَابَقْتْ إِلَيْهَا جِيَادُ الْهَمْمِ فَرَجَعَتْ دُونَهَا

حسري . واقتنت بما بلغته من صيابة نزرا . مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل . وموردها للمعنى والنال . ومغلي سبائرها للنديم والواغل ولقد سبق أن ألف علم البلاغة مشتملا على نماذج من وجوه إعجازه . والتفرقة بين حقيقته ومجازه . إلا أنه باحث عن كل خصائص الكلام العربي البليغ ليكون معيارا للنقد أو آلة للصنع . ثم ليظهر من جراء ذلك كيف تفوق القرآن على كل كلام بليغ بما توفر فيه من الخصائص التي لا تجتمع في كلام آخر للبلغاء حتى عجز السابقون واللاحقون منهم عن الإتيان بمثله . قال أبو يعقوب السكاكى في كتاب المفتاح " واعلم أنى مهدت لك في هذا العلم قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناوها . واعترف لك بكمال الحدق في البلاغة أبناؤها - إلى أن قال ثم إذا كنت ممن ملك الذوق وتصفحت كلام رب العزة . أطلعتك على ما يورنك موارد العزة . وكشفت عن وجه إعجازه القناع " اه .